

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ
لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩) [يونس: 48 - 49]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

استمراؤ أهل
الشرك في
باطلهم،
ومضيتهم
في غيهم
وانحرافهم

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَهْدِيدَهُ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ؛ بَيَّنَّ ﷺ حَالَهُمْ مَعَ هَذَا التَّهْدِيدِ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ فِي بَاطِلِهِمْ، مَاضُونَ فِي غَيِّهِمْ، فَيَسْأَلُونَ - عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِهْزَاءِ بِهِ - عَنْ مَوْعِدِ هَذَا الْعَذَابِ الَّذِي هُذِّدُوا بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ثُمَّ لَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مُتَضَمِّنًا اسْتِعْجَالَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا يُهَدِّدُهُمْ بِهِ؛ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَقْدِرْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (١).

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿ضَرًّا﴾: أَصْلُ الضَّرَرِ: النُّقْصَانُ يَدْخُلُ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ: دَخَلَ عَلَيْهِ ضَرَرٌ فِي مَالِهِ (2)، وَضِدُّهُ: النَّفْعُ وَالسَّعَةُ. وَالضَّرَرُ: الْمَكْرُوهُ وَالْأَذَى، وَضَرَّ فُلَانًا ضَرًّْا وَضَرَّرًا إِذَا أَحَقَّ بِهِ مَكْرُوهًا أَوْ أَذًى (3)، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ سُوءِ حَالٍ وَقَفَرٍ فِي بَدَنِ فَهُوَ ضَرٌّْ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفْعِ فَهُوَ ضَرٌّْ (4)، وَالضَّرُّ الْمَقْصُودُ فِي الْآيَةِ هُوَ: الْحَالُ الَّذِي يُؤْلَمُ الْإِنْسَانُ وَالْمُنَافِرُ لَهُ (5).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/134.

(2) الخليل، العين، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ضر)، وابن سيده، المختص: 4/103.

(3) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/537.

(4) الأزهرى، تهذيب اللغة: (ضر).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/163.

(2) ﴿نَفْعًا﴾: أصل النَّفْع: الْخَيْرُ، وَخِلَافُهُ: الضَّرُّ، يُقَالُ: نَفَعَهُ، يَنْفَعُهُ، نَفْعًا؛ أَي: قَدَّمَ لَهُ خَيْرًا⁽¹⁾. وَالنَّفْعُ: مَا يُسْتَعَانُ بِهِ فِي الْوُصُولِ لِلْخَيْرِ⁽²⁾، أَوْ هُوَ: مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى مَطْلُوبِهِ مِنْ جَلَبِ مَصْلَحَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، يُقَالُ: انْتَفَعَ بِالشَّيْءِ: إِذَا وَصَلَ بِهِ إِلَى مَنْفَعَةٍ مَا⁽³⁾. وَالانْتِفَاعُ: الِاسْتِفَادَةُ. وَرَجُلٌ نَفَّاعٌ: إِذَا كَانَ يَنْفَعُ النَّاسَ وَلَا يَضُرُّهُمْ⁽⁴⁾، وَالنَّافِعُ: الْمُفِيدُ، وَكُلُّ مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الشَّيْءِ فَهُوَ مَنْفَعَةٌ. وَالْمَقْصُودُ بِالنَّفْعِ فِي الْآيَةِ: مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى مَطْلُوبِهِ.

(3) ﴿يَسْتَعْجِرُونَ﴾: أصلُ التَّأخِيرِ: فِعْلُ الشَّيْءِ آخِرًا بَعْدَ أَجَلِهِ، وَالْآخِرُ ضِدُّ الْأَوَّلِ، وَالتَّأخِيرُ: التَّأْجِيلُ، يُقَالُ: أَخَّرَ الشَّيْءَ يُؤَخِّرُهُ؛ أَي: أَجَلَهُ، وَضِدُّ التَّأخِيرِ: التَّقْدِيمُ وَالتَّعْجِيلُ⁽⁵⁾، وَيُطْلَقُ التَّأخِيرُ أَيْضًا بِمَعْنَى: تَقْوِيَتِ الشَّيْءِ وَتَضْيِيعِهِ، يُقَالُ: أَخَّرَ سَفَرَهُ؛ أَي: قَوَّيْتَهُ، وَلَمْ يَأْتِ بِهِ فِي وَقْتِهِ. وَالْمُؤَخَّرُ خِلَافُ الْمُقَدَّمِ، وَيَأْتِي التَّأخِيرُ بِمَعْنَى: جَعَلَ الشَّيْءَ خَلْفَ غَيْرِهِ⁽⁶⁾، وَالتَّأَخَّرَ: التَّخَلَّفَ سِوَاءَ كَانَ فِي الْمَكَانِ أَوْ الزَّمَانِ، يُقَالُ: تَأَخَّرَ عَنْ عَمَلِهِ؛ أَي: تَخَلَّفَ عَنْهُ، وَتَأَخَّرَ عَنْ مُنَافِسِهِ إِذَا جَاءَ بَعْدَهُ فِي الْمَكَانِ أَوْ الزَّمَانِ، وَالِاسْتِخَارُ مُبَالَغَةٌ فِي التَّأَخَّرِ، مِثْلُ: اسْتِحْبَابِ، فَالَسَّيْنُ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ⁽⁷⁾. وَالْأُخِرُ: الْخَلْفُ، وَالْآخِرَةُ: الدَّارُ الَّتِي بَعْدَ الدُّنْيَا⁽⁸⁾. وَالْمَقْصُودُ بِالتَّأخِيرِ فِي الْآيَةِ: ضِدُّ التَّعْجِيلِ، وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَى التَّمْدِيدِ وَالتَّوَسُّعِ فِي أَجْلِ الشَّيْءِ.

(4) ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أصلُ (قَدَم) : يَدُلُّ عَلَى سَبْقٍ وَرَعْفٍ⁽⁹⁾. فَالْقَدَمُ مِنْ لَدُنِ الرُّسْغِ: مَا يَطَأُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ⁽¹⁰⁾، وَجَمْعُهُ أَقْدَامٌ، وَبِهِ اعْتَبَرَ التَّقْدُمُ وَالتَّأَخُّرُ⁽¹¹⁾، يُقَالُ: وَرَجُلٌ قَدَمٌ،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).

(2) الزاغبي، للفردات: (نفع).

(3) الفيومي، للصباح النير، وأحمد رضا، معجم متن اللغة: (نفع).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفع).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أخر).

(6) ابن سيده، للحكم، والزبيدي، تاج العروس: (أخر).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/201.

(8) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).

(9) الخليل، العين: (قدم).

(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (قدم).

(11) الزاغبي، للفردات: (قدم).

وامرأةً قَدَمَ: إذا كانا جَرِيئَيْنِ⁽¹⁾، والقُدَمَةُ والقَدَمُ: السَّابِقَةُ في الأمرِ⁽²⁾، والقَدَمُ أيضًا: كُلُّ ما قَدَمَتْ مِنْ خَيْرٍ⁽³⁾، يُقَالُ: لِفُلَانٍ قَدَمٌ صِدْقٍ؛ أي: شَيْءٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ أَثَرٍ حَسَنٍ⁽⁴⁾ أو سَابِقَةٌ فَضِيلَةٌ⁽⁵⁾، وَقَدَمْتُ فُلَانًا أَقْدَمُهُ: إذا تَقَدَّمْتُهُ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٦) [الأعراف: 34]؛ أي: لا يريدون تأخراً ولا تقدماً⁽⁶⁾.
والاستِقْدَامُ مُبالغةٌ في التَّقَدُّمِ، فالسَّيْنُ والتَّاءُ للمبالغةِ.

❁ الْمَعْنَى الإِجْمَالِيَّةُ:

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَقُولُونَ مُخَاطَبِينَ النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ اتَّبَعَهُ: متى سيأتينا عذابُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فيما تَعِدُونَنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَقُلْ لَهُمْ - يَا مُحَمَّدٌ -: لَا أَقْدِرُ عَلَى صَرِّ نَفْسِي وَلَا نَفْعِهَا فِي دِينِي وَلَا دُنْيَايَ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْلِكُهُ وَأَقْدِرَ عَلَيْهِ، وَلَسْتُ قَادِرًا عَلَى الْإِثْبَانِ بِمَا تَسْأَلُونَنِي عَنْهُ مِنَ الْعَذَابِ، فلكلِّ قَوْمٍ مَوْقْتُ مُحَدَّدٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ لَانْقِضَاءِ مَدَّتِهِمْ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ انْقِضَاءِ أَجَلٍ كُلِّ أُمَّةٍ، فَلَا يُؤَخَّرُونَ عَنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لِهَلَاكِهِمْ سَاعَةً، وَلَا يَتَقَدَّمُ أَجْلُهُمْ عَنْهُ⁽⁷⁾.

❁ الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلَالَةُ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ معطوفاً على قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾؛ وذلك لِأَنَّهُ لَمَّا بَيَّنَّتِ الْآيَةُ

لا يَعْلَمُ مِيقَاتِ
السَّاعَةِ، وَلَا
كُنْهَهَا، وَلَا
تَصْرِيفَ الْأَجَالِ
إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى
وَحْدَهُ

الْوَعْدُ الْأَتَمُّ،
وَالْعَذَابُ
الْأَشَدُّ، هُوَ وَعِيدُ
الْآخِرَةِ وَعَذَابُهَا
الَّذِي وَعَدَ

- (1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قدم).
- (2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قدم).
- (3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قدم).
- (4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
- (5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق)، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
- (6) الرَّاغِب، المفردات، والسَّمين الحلي، عمدة الحفاظ: (قدم).
- (7) ابن جرير، جامع البيان: 12/190، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/124، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/350، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.

السَّابِقَةُ أَنَّ تَعَجِيلَ الْوَعِيدِ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ وَتَأْخِيرُهُ عَنْهُمْ سَوَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذِ الْوَعِيدُ الْأَتَمُّ هُوَ وَعِيدُ الْآخِرَةِ، أُتْبِعَتْ بِهَذِهِ الْآيَةِ حِكَايَةً لِنَهْكُمُھُمْ عَلَى تَأْخِيرِ الْوَعِيدِ⁽¹⁾.

والجملتان كلتاھما خبریَّةٌ، وَبَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ؛ لَكُونَهُمَا قَدْ سَبَقَتَا فِي شَأْنِ الْعَذَابِ، مِنْ جِهَةِ التَّهْدِيدِ بِهِ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، وَمِنْ جِهَةِ تَهْكُمِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، فَكَانَ الْوَصْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ المضارعُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ الْقِرَائِيُّ: (وَقَالُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ)، وَالنُّكْتَةُ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْمَاضِي إِلَى الْمَضَارِعِ الْإِيْمَاءُ إِلَى اسْتِحْضَارِ الْحَالِ الْمَاضِيَّةِ؛ لَكُونَ ذَلِكَ دَالًّا عَلَى تَكَرُّرِ صُدُورِهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ الْعِنَادَ دَائِبُهُمْ وَشَأْنُهُمْ.

مَرْجِعُ الضَّمِيرِ فِي ﴿وَيَقُولُونَ﴾، وَغَرَضُ الْإِضْمَارِ:

الضَّمِيرُ فِي ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عَائِدٌ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنْ مُنْكَرِي الْبَعْثِ، وَعُبِّرَ عَنْهُمْ بِالضَّمِيرِ دُونَ التَّصْرِيحِ بِهِمْ؛ لِبَيَانِ عَدَمِ الْإِهْتِمَامِ بِذِكْرِهِمْ، أَوْ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ تَقْبِيحًا وَإِهَانَةً لِشَأْنِهِمْ، أَوْ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا لَيْسَ ذَا بَالٍ حَتَّى يُلْتَفِتَ إِلَيْهِمْ أَوْ إِلَيْهِ، وَلَا بَأْسَ مِنْ إِرَادَةِ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا؛ إِذِ النُّكَاتُ الْبَلَاغِيَّةُ تَتَوَارَدُ وَلَا تَتَزَاحَمُ.

بِلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾:

الاستفهامُ بِ﴿مَتَى﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ مُسْتَعْمَلٌ فِي "الاسْتِبْطَاءِ"، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ اكْتِرَائِهِمْ بِهِ، وَأَنَّهُمْ

الْعِنَادُ وَالْمُحَارَاةُ
دَائِبٌ أَهْلُ الْكُفْرِ
وَالْبَاطِلِ

تَقْبِيحُ الْمُشْرِكِينَ
وَإِهَانَتُهُمْ، وَتَرْكُ
الْإِهْتِمَامِ بِهِمْ
وَبِمَقَالَتِهِمْ

تَكْذِيبُ الْكُفَّارِ،
لِمَا هَدَّدُوا بِهِ مِنْ
عَذَابِ الدُّنْيَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/188، وناجي، الأسماء للضمنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 162.

لا يَأْتَهُونَ بِهِ، لِيَنْتَقَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِحُصُولِهِ بِطَرِيقِ
الإِيمَاءِ بِقَرِينَةٍ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أَي: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
فِي أَنَّهُ وَاقِعٌ فَعَيْنُنَا لَنَا وَقْتَهُ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنَّنَا لَا نُصَدِّقُكَ حَتَّى نَرَى
مَا وَعَدْتَنَا: كَنَائَةً عَنْ اعْتِقَادِهِمْ عَدَمَ حُلُولِهِ، وَأَنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ،
وَالْوَعْدُ الْمَذْكُورُ هُنَا: مَا هُدُّوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا⁽¹⁾.

دلالة الاستفهام في سياق الكلام:

الاستفهام في قولِ الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ليس
جاريًا على حقيقته مِنْ طَلَبِ تَعْيِينِ وَقْتِ مَجِيئِهِ، وَإِنَّمَا الِاسْتِفْهَامُ
مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى الِاسْتِعْجَالِ لِمَا وُعِدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى طَرِيقَةِ
الِاسْتِهْزَاءِ بِهِ وَالْإِنْكَارِ حَسْبَمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ الْجَوَابُ⁽²⁾.

نكتة التعبير باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾:

أَفَادَ التَّعْبِيرُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿هَذَا﴾ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الْمُبَالَغَةَ فِي تَهْكُمِ الْمُشْرِكِينَ بِوُقُوعِ الْعَذَابِ الَّذِي
وُعِدُوا بِهِ، وَاسْتِعْجَالِ نَزْوِلِهِ، وَاسْتِبْطَاءِ حُصُولِهِ تَحْقِيرًا لَهُ وَإِهَانَةً.

دلالة (ال) في: ﴿الْوَعْدُ﴾:

الْلَامُ فِي ﴿الْوَعْدُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾
لِلْعَهْدِ الْعِلْمِيِّ؛ وَالْمَعْنَى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي تَتَهَدَّدُنَا بِهِ فِي
كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ؛ وَهُوَ إِمَّا الِاسْتِئْصَالُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا الْعَذَابُ الْآخِرِيُّ.

نكتة التعبير بالمصدر ﴿الْوَعْدُ﴾:

أُطْلِقَ الْوَعْدُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، وَهُوَ
فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ لِلْفِعْلِ وَعَدَ، يَعْدُ؛ عَلَى الْأَمْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ، فَالسُّؤَالُ
عَنْهُ بِاسْمِ الزَّمَانِ مُؤَوَّلٌ بِتَقْدِيرِ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ؛ أَي: مَتَى ظُهُورُهُ؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/189، وناجي، الأسماء للضمة معنى الاستفهام في القرآن
الكریم، ص: 162 - 163.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/151.

اسْتِعْجَالُ
الْكَفَّارِ الْعَذَابِ،
سَبَبُهُ إِنْكَارُهُ
وَاسْتِهْزَاؤُهُمْ بِهِ

تَهْكُمُ الْمُشْرِكِينَ
بِوَعْدِ اللَّهِ
تَعَالَى،
وَاسْتِعْجَالُهُمْ
نَزْوِلَهُ

وُعْدَ الْمُشْرِكِينَ
بِالِاسْتِئْصَالِ
فِي الدُّنْيَا أَوْ
بِالْعَذَابِ فِي
الْآخِرَةِ

مُبَالَغَةُ الْمُشْرِكِينَ
فِي تَكْذِيبِهِمْ وَعَدَ
اللَّهُ تَعَالَى

والتَّعْبِيرُ بِهِ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ بِعِلَاقَةِ التَّلْعُقِ الْاِشْتِقَاقِيِّ، وَالنُّكْتَةُ فِي ذَلِكَ: الْمِبَالِغَةُ فِي نَفْيِ الْأَمْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ؛ بِإِبْطَالِ أَصْلِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْوَعْدُ صَحِيحًا.

سُرُّ تَعْلِيْقِ الشَّرْطِ بِالْحَرْفِ «إِنْ»:

عُلِقَ الشَّرْطُ بِ «إِنْ» فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، لِإِظْهَارِ عَدَمِ تَصْدِيقِهِمْ؛ تَهَكُّمًا وَاسْتِبْعَادًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ «إِنْ» تُسْتَعْمَلُ فِي الْأَصْلِ لِلْأَمْرِ الْمَشْكُوكِ فِيهِ الَّذِي لَا يَقْطَعُ بِتَحَقُّقِهِ، وَقَوْلُهُمْ: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» بِمَنْزِلَةِ اسْتِبْعَادٍ لِمَا وَعَدُوهُ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا يَقُولُ الْمُنْكَرُ لِلشَّيْءِ لِمَنْ أَمَامَهُ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَافْعَلْ كَذَا وَكَذَا.

بِلَاغَةُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ:

حُذِفَ جَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» لِدَلَالَةِ الْمَقَامِ عَلَيْهِ؛ إِذِ الْمُرَادُ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَنَا بِالْعَذَابِ؛ فَلْيَأْتِنَا بِهَذَا الْعَذَابِ الْآنَ أَوْ عَاجِلًا، أَوْ يَكُونِ الْجَوَابُ: فَمَتَى هَذَا الْوَعْدُ، فَحُذِفَ إِيجَازًا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْسَبَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِعْجَالِهِمْ بِهَذَا الْعَذَابِ، وَلِمَا فِي الْحَذْفِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِكَوْنِ إِيْتَانِهِ بِوَسْطَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، الْخِطَابُ فِيهِ بِقَوْلِهِمْ: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» لِلرَّسُولِ ﷺ، فَضْمِيرُ التَّعْظِيمِ صَادِرٌ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، وَهَذَا الْمَحْمَلُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِجَوَابِهِمْ بِقَوْلِهِ: «قُلْ لَا أَمْلِكُ»، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ بِهَذَا لِمَا التَّمَسَّوْا تَعْجِيلَ الْعَذَابِ أَوْ تَعْجِيلَ السَّاعَةِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيَّ، إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا كُنْتُ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَكَيْفَ أَمْلِكُهُ لِغَيْرِي؟

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ وَلِلْمُسْلِمِينَ، جَمْعُهُمْ فِي الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ بِهِ، وَالْمُسْلِمِينَ آمَنُوا بِهِ، فَخَاطَبُوهُمْ

دِقَّةُ الْبَيَانِ
الْقِرَاءَاتُ فِي
اسْتِعْمَالِ أَدْوَاتِ
الشَّرْطِ لِلدَّيْمَةِ
لِسِيَاقَاتِهَا

اسْتِعْجَالُ
الْمُشْرِكِينَ
بِالْعَذَابِ عَلَى
وَجْهِ الْاِسْتِهَانَةِ
وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ

أَهْلُ الْإِيمَانِ
تَابِعُونَ لِلنَّبِيِّ
ﷺ فِيمَا يَقُولُهُ

بذلك جميعاً؛ لِكَذِبِ النَّبِيِّ ﷺ، وإِدْخَالِ الشَّكِّ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا خُصَّ الرَّسُولُ ﷺ بِالْأَمْرِ بِجَوَابِهِمْ؛ لَأَنَّهُ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَتَابِعُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ⁽¹⁾.

عِلَّةُ الْفَصْلِ فِي: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ﴾:

بيان استبعاد
المُشْرِكِينَ، أن
يكون العذاب
الموعود صادراً
من الله سبحانه

فَصَلَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لكونه واقعاً جواباً عن سؤال يفهم من الأولى، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال، وهو المسمى: الاستئناف البياني، وذلك أنه لما حكيت عنهم مقاتلتهم بـ ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، يبعث هذا في نفس المتلقي سؤالاً، وهو: فماذا كان ردُّ النَّبِيِّ ﷺ، فجاء الجواب: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾.

والآية واردة على طريقة أسلوب الحكيم؛ وذلك لأنهم ما أرادوا بالسؤال حقيقة الاستعلام، وإنما مرادهم استبعاد أن يكون الموعود من الله تعالى، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ هو من يدعي ذلك، فطلبوا منه تعيين الوقت تهكماً وسخرية، فجاء الجواب ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِفَعْلِ الْأَمْرِ ﴿قُلْ﴾:

الرَّدُّ مِنَ اللَّهِ
سبحانه يكون
أشدَّ إجحاماً
للخصم، وأقوى
في إبطال حجته

صُدِّرَتِ الْآيَةُ بِفَعْلِ الْأَمْرِ ﴿قُلْ﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾؛ لِيَكُونَ الرَّدُّ مِنْهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَلِبَيَانِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يُخَوَّلْ لَهُ الرَّدُّ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَصِيرَ أَقْوَى فِي دَحْضِ كَلَامِهِمْ وَإِبْطَالِ حُجَّتِهِمْ، وَأَنَّهُ ﷺ مَا كَانَ لِيَرُدَّ أَوْ يَصُدِّرَ فِي أَمْرٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا كَانَ الْجَوَابُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَشَدَّ إِفْحَاماً لِلْخَصْمِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفَعْلِ الْمَضَارِعِ ﴿أَمْلِكُ﴾:

تَبَرُّؤُ النَّبِيِّ ﷺ
مِنَ الْخَوْلِ
وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِاللَّهِ
سُبْحَانَهُ

جاءَ التَّعْبِيرُ بِالْفَعْلِ الْمَضَارِعِ ﴿أَمْلِكُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾؛ لِقَصْدِ اسْتِحْضَارِ الصُّورَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ، وَإِلْفَادَةِ

(1) الألويسي، روح المعاني: 11/130، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/151، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/189، ناجي، الأسماء الضمنية معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 163.

تجدد هذا النَّفْيِ واستمراره، فقوله: ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ يقتضي تجديد عدم مُلْكِيَّتِهِ لِنَفْسِهِ ﷻ نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله تعالى.

دلالة اللَّام في شبه الجملة ﴿لِنَفْسِي﴾:

اللَّامُ في ﴿لِنَفْسِي﴾ من قولِ الله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ يُرادُّ بها الاختصاص؛ أي: لا أملكُ من أمري شيئاً أخصُّ نفسي به من ضرٍّ أو نفع، وإذا كان لا يملكُ لِنَفْسِهِ ضرًّا ولا نفعًا، فعدمُ ملكه نفعٍ غيره أو ضرِّه من بابٍ أولى.

النَّفْعُ وَالضَّرُّ يَبْدُ
الله تعالى وحده

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿لِنَفْسِي﴾:

قدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لِنَفْسِي﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ على المفعول، فلم يردِ النِّظْمُ القرآني: (لا أملكُ ضرًّا ولا نفعًا لِنَفْسِي)؛ لإفادة الاهتمام، لا لإفادة القصر والتخصيص؛ إذ لا يصحُّ أن يكون المراد: لا أملكُ لِنَفْسِي ضرًّا ولا نفعًا، ولكن أملكُهما لغيري، وإنما المرادُ من التقديم الاهتمامُ بشأنِ النَّبِيِّ ﷺ، ولقطع الطَّمَعِ عَن غَيْرِهِ في ملكِ الضَّرِّ والنَّفْعِ؛ لأنه إذا كان هو ﷻ لا يملكُهما لِنَفْسِهِ، فلا يملكُهما لغيره بطريقِ الأولويَّةِ والأحرونيَّةِ، ولا يملكُهما غيره لِنَفْسِهِ كذلك.

قَطَعَ الطَّمَعُ
عن العبادِ في
ملكِهِمُ الضَّرَّ
وَالنَّفْعَ

ويجوزُ أن تكون الآيةُ من بابِ الاكتفاء، فيكونُ معنى قولِ الله سبحانه: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾؛ أي: لا أملكُ لِنَفْسِي ولا لغيري.

نكتة تنكير ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾:

نَكَّرَ ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ لإرادة التَّخْلِيلِ والتَّحْقِيرِ؛ أي: لا أملكُ لِنَفْسِي أقلَّ نفعٍ وأحقَّره فأنفعها به، أو أقلَّ ضررٍ وأحقَّره فأردَّه عنها، وإذا نُفِيَ النَّفْعُ القليلُ والضررُ القليلُ؛ فانتفاء ما فوق ذلك من بابٍ أولى؛ لأنَّ الَّذِي يملكُ النَّفْعَ وَالضَّرَّ هو الله تعالى.

نَفْيُ مُلْكِ النَّبِيِّ
لِشَيْءٍ مِنْ
النَّفْعِ وَالضَّرِّ،
ولو كان قليلاً

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الضَّرِّ عَلَى النَّفْعِ:

قُدِّمَ الضَّرُّ عَلَى النَّفْعِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ لَأَنَّهُ أُنْسِبُ بِالْغَرَضِ الَّذِي سَيَقَتْ الْآيَةُ لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا اسْتِبْطَاءَ مَا فِيهِ مَضَرَّتُهُمْ؛ وَهُوَ الْوَعِيدُ، وَلِأَنَّ اسْتِطَاعَةَ الضَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ اسْتِطَاعَةِ النَّفْعِ، فَيَكُونُ ذِكْرُ النَّفْعِ بَعْدَهُ ارْتِقَاءً، وَالْمَقْصُودُ مِنْ جَمْعِ الْأَمْرَيْنِ الْإِحَاطَةَ بِجِنْسِي الْأَحْوَالِ⁽¹⁾. وَقُدِّمَ الضَّرُّ أَيْضًا؛ لِأَنَّ مَسَاقَ النَّظْمِ إِظْهَارُ الْعَجْزِ عَنْهُ، وَذَكَرَ النَّفْعَ لِتَوْسِيعِ الدَّائِرَةِ تَكْمِلَةً لِلْعَجْزِ⁽²⁾، وَيَبَيِّنُ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ طِبَاقًا، اقْتِضَاهُ الْمَقَامَ، وَطَلَبُهُ الْحَالَ.

تَوْجِيهِ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ آيَتِي سُورَةِ يُونُسَ، وَالْأَعْرَافِ:

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، وَجَاءَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]، وَوَجْهَ الْمَغَايِرَةِ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ النَّفْعُ عَلَى الضَّرِّ؛ لِلْإِشْعَارِ بِأَهْمِيَّتِهِ، وَالْمَقَامُ مَقَامُهُ، حَيْثُ سَبَقَ السُّؤَالُ عَنِ السَّاعَةِ وَوَقْتِ وَقُوعِهَا، وَجَاءَ تَفْصِيلُ السُّؤَالِ بَيْنَهُ ﷻ وَبَيْنَهُمْ، كَأَنَّهُ أَوْتِيَتْ عِلْمُهَا وَدَرَى مَسَارَهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: 187]، فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ إِثْبَاتًا لِلْمَلَكِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَهِيَ مِنْ بَابِ الْمَنَافِعِ قُدِّمَ النَّفْعُ، وَالْمُرَادُ فِي رَدِّهِ عَلَيْهِمْ: لَا أَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ شُؤْنِي رَدًّا وَإِيرَادًا مَعَ أَنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ حَصُولًا، فَكَيْفَ أَمْلِكُ شُؤْنَكُمْ حَتَّى أَسَبِّبَ فِي إِيْتَانِ عِقَابِكُمْ الْمَوْعُودِ حَسْبَمَا تُرِيدُونَ⁽³⁾.

تقديم الضَّرِّ
على النَّفْعِ
مُلائِمٌ لاسْتِبْطَاءِ
الْمُشْرِكِينَ مَا فِيهِ
مَضَرَّتُهُمْ

براعة البيان
القرآني في
التَّصَرُّفِ
بِالْأَلْفَاظِ تَقْدِيمًا
وَتَأْخِيرًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/189، وناجي، الأسماء الضميمة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 163.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/151، والآلوسي، روح المعاني: 11/130.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/130، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/151.

دلالة الاستثناء بالأداة ﴿إِلَّا﴾:

الاستثناء في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مُنْقَطِعٌ بمعنى (لَكِنْ): أي: لَكِنْ نَفْعِي وَضَرِّي هو ما يشاؤه الله لي، وهذا الجواب يَقْتَضِي إبطال كلامهم بالأسلوب المُصْطَلَح على تلقيبه في فنَّ البَدِيعِ بالمذهبِ الكلامي، ويُسمى: البَحْثُ أيضًا⁽¹⁾؛ أي: بطريقِ بُرْهَانِيٍّ لَأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؛ فَعَدَمُ اسْتَطَاعَتِهِ ما فيه ضَرُّ غَيْرِهِ بهذا الوَعْدِ أَوَّلِي؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّ أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ إِلَى مَقْدَرَةِ الْمَرَّةِ هو ما له اخْتِصَاصٌ بِذَاتِهِ، فمعنى الجواب: أَنَّ الْوَعْدَ مِنَ اللَّهِ لَا مِنِّي، وَأَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى انْزَالِهِ بِكُمْ؛ لِأَنَّ لَهُ أَجَلًا عِنْدَ اللَّهِ⁽²⁾.

إذا عَجَزَ لِلرَّءِ عَمَّا
هو اخْتِصَاصٌ
بذَاتِهِ؛ فَهُوَ عَمَّا
سِوَاهُ أَعْجَزَ

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الاستثناءُ مُتَّصِلًا عَلَى مَعْنَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَمْلِكُهُ، وَتُعَقَّبَ بِأَنَّهُ يَأْبَاهُ مَقَامُ التَّبَرِّيِّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ﷻ دَخْلٌ فِي إِيْتَابِ الْوَعْدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي بَيَانَ كَوْنِ الْمُتَنَازِعِ فِيهِ مِمَّا لَا يَشَاءُ أَنْ يَمْلِكَهُ ﷻ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِذَا كَانَ الْمَلِكُ بِمَعْنَى الْاسْتَطَاعَةِ يَكُونُ الاستثناءُ مُتَّصِلًا، وَإِذَا أَبْقِيَ عَلَى ظَاهِرِهِ تَعَيَّنَ الانْقِطَاعُ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْأَصْلَ الْاِتِّصَالَ، وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْهُ، حَيْثُ أَمَكَّنَ مِنْ دُونِ تَعَسُّفٍ⁽³⁾.

دلالة ﴿مَا﴾ في سياق اختصاص استثناء الشيئة بالله:

﴿مَا﴾ في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ اسمٌ مَوْصُولٌ بِمَعْنَى: الَّذِي، وَصِلَتُهُ جَمْلَةٌ: ﴿شَاءَ اللَّهُ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: إِلَّا الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، أَوْ: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ أَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا؛ فَإِنِّي أَقْدِرُ عَلَيْهِ بِمَشِئَتِهِ سُبْحَانَهُ.

ما شاء الله
كان، وما لم
يشأ لم يكن

(1) إذا ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم، فالأولى تسميته: البحث، لأن تسميته المذهب الكلامي قد يوهم معنى غير لائق.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/190.

(3) الألوسي، روح المعاني: 11/130.

دلالة أسلوب القصر، وعرضه:

في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أسلوب قصر، فقد قُصِرَ مُلْكُ النَّبِيِّ ﷺ الضَّرَّ والنَّفْعَ على مشيئة الله سبحانه، وهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقياً تحقيقياً، وقد ورد بأقوى طرق القصر؛ وهو النَّفْيُ والاستثناء، فلا يملك النَّبِيُّ ﷺ - فضلاً عن غيره - شيئاً من الضَّرِّ والنَّفْعِ إِلَّا ما شاءه الله سبحانه.

علة الفصل في: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾:

قول الله ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ "مِنَ الْمَقُولِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَمَوْقِعُهَا مِنْ جُمْلَةٍ ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مَوْقِعُ الْعِلَّةِ؛ لِأَنَّ جُمْلَةَ ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ اقْتَضَتْ انْتِفَاءَ الْقُدْرَةِ عَلَى حُلُولِ الْوَعْدِ، وَجُمْلَةُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ تَتَضَمَّنُ أَنَّ سَبَبَ عَدَمِ الْمَقْدَرَةِ عَلَى ذَلِكَ هُوَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ أَجَالَ أَحْوَالِ الْأُمَمِ. وَمِنْ ذَلِكَ أَجَلَ حُلُولِ الْعِقَابِ بِهِمْ بِحِكْمَةٍ اقْتَضَتْ تِلْكَ الْأَجَالَ، فَلَا يَحِلُّ الْعِقَابُ بِهِمْ إِلَّا عِنْدَ مَجِيئِهِ فِي ذَلِكَ الْأَجَلِ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَغْيِيرِ مَا حَدَّدَهُ اللَّهُ"⁽¹⁾.

دلالة اللام في شبه الجملة ﴿لِكُلِّ﴾:

اللام في ﴿لِكُلِّ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ تدلُّ على التَّخْصِصِ؛ والمعنى: لكل أُمَّةٍ مَمَّنْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِهِمْ أَجَلٌ مُعَيَّنٌ خَاصٌّ بِهِمْ لَا يَتَعَدَّى إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى.

نكتة تنكير ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٌ﴾:

وردت لَفْظَةُ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٌ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ نَكْرَتَيْنِ، والمراد بهما: نوعٌ مُعَيَّنٌ خَاصٌّ بِهِمْ لَا يَتَعَدَّى لَهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى، وَأَجَلٌ خَاصٌّ مُضْرُوبٌ لِعَذَابِهِمْ يَحِلُّ بِهِمْ عِنْدَ حُلُولِهِ.

قصر المشيئة
على الله
سبحانه، هو
كمال الإيمان،
بمطلق تصرفه
في الأكوان

من بدائع
أساليب القرآن
الكريم قرن
الأحكام بعلاها

لكل أمة من
الأمم أجل
خاص لا
يتجاوزونه

بيان النوعية
لكل من الأمة
والأجل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/190.

سرّ تقديم المُسندِ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

قَدَّمَ المُسندُ على المُسندِ إليه في قولِ الله ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ لإفادةِ قَصْرِ المُسندِ إليه على المُسندِ، والتَّنبِيهِ عليه مِنْ أَوَّلِ الأمرِ أَنَّهُ خبرٌ لا صفةٌ؛ والمعنى: لِكُلِّ أُمَّةٍ مَخْصُوصَةٌ أَجَلٌ خَاصٌّ بِهَا لا يَشْرُكُهَا فِيهِ غَيْرُهَا.

بيانُ الدَّلالةِ على
التَّخْصِصِ في
الأُمَّةِ والأَجَلِ

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾:

فُصِّلَ قولُ الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ، وهو قولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ لِكُونِهَا مُبْدَلَةً مِنْهَا، فَبَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ كَمَالُ الاتِّصَالِ، وَقَدْ خَصَّ اللهُ سُبْحَانَهُ مَجِيءَ الأَجَلِ بَعْدَ ذِكْرِهِ لِلْعَنَايَةِ بِشَأْنِ هَذَا الأَجَلِ، وَلِكُونِهِ أَلْزَمَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَكَوْنِهِ أَوْفَى بِالْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الأَجَلِ.

بيانُ شأنِ الأَجَلِ
المَضْرُوبِ لِلْأَمَمِ
وَأَهْمِيَّتُهُ

نُكْتَةُ تَعْلِيلِ الشَّرْطِ بِـ ﴿إِذَا﴾:

عُلِّقَ الشَّرْطُ بِـ ﴿إِذَا﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ ﴿إِذَا﴾ تُسْتَعْمَلُ فِي الأَمْرِ الْمَقْطُوعِ بِوقوعِهِ، وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِي الأَمْرِ الْمَشْكُوكِ فِيهِ، وَلَمَّا ضُرِبَ لَهُوَلاءِ أَجَلٍ مُحَدَّدٍ مُعَيَّنٍ مَعْلُومٍ؛ أَبَانَ عَنِ الْقَطْعِ بِصَحَّةِ وَقُوعِهِ وَحُصُولِهِ، وَأَنَّهُ مِمَّا لَا يَرْتَابُ فِيهِ مُرْتَابٌ أَوْ يَنْكَرُهُ مُنْكَرٌ.

وَعَدُ اللهِ
تَعَالَى مَقْطُوعٌ
بوقوعِهِ، لَا
يَتَخَلَّفُ أَبَدًا

بلاغةُ المَجَازِ العَقْلِيِّ أَوْ الاستِعَارَةِ:

أُسْنِدَ المَجِيءِ إِلَى الأَجَلِ فِي قولِ الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ مِنْ بَابِ المَجَازِ العَقْلِيِّ لِإِعْلَاقَةِ الزَّمَانِيَّةِ، وَالْمَرَادُ: وَقْتُ وَقُوعِهِ وَحُدُوثِهِ، وَزَمْنٌ ذَلِكَ، وَنُكْتَةُ المَجَازِ: التَّنْبِيهِ عَلَى المَبَالِغَةِ فِي حُصُولِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ الاستِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ؛ حَيْثُ شَبَّهَ الأَجَلَ بِإِنْسَانٍ - مَثَلًا - يَقَعُ مِنْهُ المَجِيءُ، فَحُذِفَ المِشْبَهُ بِهِ، وَدُلَّ عَلَيْهِ بِإِزْمِهِ؛ وَهُوَ المَجِيءُ، وَإِثْبَاتُ المَجِيءِ لِلأَجَلِ تَخْيِيلٌ، وَهُوَ قَرِينَةُ المَكْنِيَّةِ، وَفِي

إِبْرَارُ العَقُولَاتِ
فِي صُورِ
المَحْسُوسَاتِ
أَعْلَقَ بِالدَّهْنِ،
وَأَوْضَحَ فِي
الْفَهْمِ

التعبير بالاستعارة إبراز للمعقول في صورة المحسوس؛ لأن ذلك أثبت في الذهن وأوضح.

سرّ إضافة الأجل في ﴿أَجَلُهُمْ﴾:

بلوغ كل أمة
أجلها الخاص
بها أمر واقع، ما
له من دافع

إن جعل الضمير للأمم المدلول عليها بـ (كل أمة)، فإظهار الأجل مضافاً إليه في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها، ومجيئه إيّاها بعينها من بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عمومًا يفيدُه معنى الجمعِيَّة، كأنه قيل: إذا جاءت آجالهم؛ بأن يجيء كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها، وإن جعل ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خاصَّةً، كما هو الظاهر، فتكونُ الإضافة لإفادة كمال التَّعيين؛ أي: إذا جاءها أجلها الخاص بها⁽¹⁾.

دلالة الفاء في: ﴿فَلَا﴾:

بيان دقّة الأجل
المضروبة، لكل
أمة من الأمم

الفاء في ﴿فَلَا﴾ من قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ رابطة لجواب الشرط (لا يستأخرون) بجملة الشرط ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ لبيان ترتب الجواب على شرطه، و(لا) نافية، وجملة ﴿فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ لا محل لها من الإعراب جواب ﴿إِذَا﴾.

دلالة دخول السين في ﴿يَسْتَعْجِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾:

غرض المبالغة في
نفي التأخر عن
الأجل أو التقدّم
عنه

صيغة الاستفعال ﴿يَسْتَعْجِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له، والمعنى: لا يتأخرون عنه أصلاً، و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوف على ﴿يَسْتَعْجِرُونَ﴾؛ أي: لا يتقدّمون عليه، لكن لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخّر، بل للمبالغة في انتفاء التأخّر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً، وهذا هو السرُّ

(1) الألويسي، روح المعاني: 11/131، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/152.

في إيراد صيغة الاستفعال؛ أي: إِنَّهُ بَلَغَ في الاستحالة مَبْلَغًا: أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ؛ إِذِ الْمَحَالُّ لَا يُطْلَبُ⁽¹⁾.

سُرُّ التَّعْبِيرِ بِالْأَفْعَالِ الْمُصَارِعَةِ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ:

عُبِّرَ بِالْفِعْلِ الْمُصَارِعِ «يَسْتَعْرِضُونَ» و«يَسْتَقْدِمُونَ» فِي قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: «إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»؛ لِإِفَادَةِ التَّجَدُّدِ فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَحُدُوثِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، وَأَنَّ كُلَّ أَجَلٍ قَدَرَهُ اللَّهُ ﷻ فَإِنَّهُ يَجْرِي فِيهِ هَذَا الْحُكْمُ مِنْ انْتِفَاءِ التَّقَدُّمِ عَلَيْهِ أَوْ التَّأَخُّرِ عَنْهُ.

نَفْيُ التَّقَدُّمِ
والتَّأَخُّرِ عَنْ كُلِّ
أَجَلٍ قَدَرَهُ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ

وَبَيْنَ الْفِعْلَيْنِ «يَسْتَعْرِضُونَ» و«يَسْتَقْدِمُونَ» طِبَاقُ إِجَابٍ؛ لِتَضَادِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ لَفْظِ «سَاعَةً»:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِ«سَاعَةٍ» مُنْكَرَةً فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: «إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»؛ لِإِرَادَةِ التَّكْثِيلِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَقْدِمُونَ شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الزَّمَانِ، وَلَا يَسْتَأْخِرُونَ مُطْلَقًا، وَلَوْ مِقْدَارًا يَسِيرًا مِنْهُ، وَلَا سَيِّمًا وَأَنَّ لَفْظَ (السَّاعَةِ) يُسْتَعْمَلُ مَثَلًا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ مِنَ الزَّمَنِ.

دِقَّةُ الْأَجَلِ
الْمَضْرُوبِ لِلذَّمِّ،
فَلَا يَتَأَخَّرُ شَيْءٌ
وَلَا يَتَقَدَّمُ، إِلَّا
بِقَدْرِ مَعْلُومٍ

و«سَاعَةً» فِي الْآيَةِ ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ «يَسْتَعْرِضُونَ».

نُكْتَةُ حَذْفِ الظَّرْفِ مَعَ الْفِعْلِ «يَسْتَعْرِضُونَ»:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»، وَفِيهِ حُذِفَتْ كَلِمَةُ «سَاعَةً» مَعَ الْفِعْلِ «يَسْتَقْدِمُونَ» إِيْجَازًا وَاختِصَارًا؛ لِإِدْلَالِ كَلِمَةِ «سَاعَةً» الْمَذْكُورَةِ عَلَيْهَا، وَلَوْ أُعِيدَ ذِكْرُهَا بِأَنْ يَرِدَ النِّظْمُ الْقُرْآنِيُّ: (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ سَاعَةً، أَوْ لَا يَسْتَقْدِمُونَ أُخْرَى)؛ لَكَانَ حَشْوًا لَا يُفِيدُ مَعْنَى جَدِيدًا،

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
مُنَزَّهُ عَنْ ذِكْرِ
الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا
يُحْتَاجُ إِلَيْهَا

(1) الألويسي، روح المعاني: 11/131.

ومعلوم أنَّ الثاني يُحذف لدلالة الأول عليه، وذكره مع عدم إفادته نوعٌ من العبث الذي نُزّه عنه القرآن الكريم. ويضاف إلى النكتة المعنوية لحذفه فائدة لفظية - على وجه التبع - وهي فوات التناسب بين فواصل الآيات على تقدير ذكرها، فكان في حذفها براءة في المعنى، وجمالٌ في اللفظ.

توجيه التشابه اللفظي بين آية يونس، والأعراف، والنحل:

قال الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: 34]، وقال ﷻ: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: 61]. ووجه المغايرة بينها: أنه قد قرنت (إذا) بالفاء في ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ موضعِ الأعراف والنحل، وسقطت من موضعِ يونس ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾، "وذلك أنه لما سيقَّت الآية جواباً عن استعجالهم العذاب الموعود؛ اعتنى بأمر الشرطية ولزومها كمال الاعتناء، فأتى بها غير متفرعة على شيء، كأنها من الأمور الثابتة في نفسها الغير المتفرعة على غيرها، وقوي لزوم التالي فيها للمُقَدَّم بزيادة الفاء التي بها يُؤْتَى للربط في أمثال ذلك، ولا كذلك آية الأعراف كما لا يخفى...، وقد يُقال: إن إسقاط الفاء أولاً؛ لتكون الجملة في موضع الصفة لـ (أجل)؛ تهويلاً لأمره، وتنويعاً بشأنه، حسبما يقتضيه المقام؛ أي: لكل أمة أجلٌ موصوفٌ بأنه إذا جاء لا يستأخرون عنه، ولا يستقدمون عليه البتة" (1).

أهمية التصريف
بالألفاظ ذكراً
وحذفاً، بما
يناسب المقام

(1) الألويسي، روح المعاني: 11/131.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع

القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 19، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-16-6

يشتمل على ارجاعات ببلليوجرافية.

مج. 19: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

التقييم الدولي: 978-9948-768-16-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»